أبناؤنا فى مهد الطفولة

ولائدنا وولداننا ، هؤلاء الأطهار فى طفولتهم الساهية البريئة ، أى شىء هم فيما أرادهم الله للدنيا وللدين ؟

هم فى المهود الموطأة والحجور الدافئة ، وعلى الصدور الحانية والأذرع الرفيقة ، نبات الله الأخضر فى مزرعته الفيحاء ، وأزاهيره العطرة فى دنيا الآباء والأمهات ، وهم ما داموا من براءة الطفولة فى جمال الخلق الوضىء لا يعبر عنهم لسان المصلح الأكبر فى شريعته السمحة إلا بأنهم رياحين الدار يشمها الآباء فيتروحون منها رائحة الجنة ، وتضمها الأمهات فتحنو أرواحهن على أشباه الملائكة .

وهم فى نضرة الصبا ومطالع الشباب ، زينة الحياة ورجاء الأهل والوطن ، والأعواد الرطبة المرجوّة الثمرات ، والأغصان الزاكية الدانية القطاف ، وهم ما داموا من مرح الصبا بين ملاعب الرفاق ومذاهب الأهبة للحياة الجادة والمستقبل الرحيب لا تنظر إليهم قلوبنا إلا بعين نصيب الشاعر :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشأ الصغار

أما هم فى الشباب الأوفى والفتوة المكتملة ، فهم حينئذ حاجة الوطن المرموقة وأمله المدخر ، هم حينئذ كفاته المتواردون على إسعاده جيلا بعد جيل ، الناهضون بحقه قبيلا بعد قبيل ، هم حينئذ سواعده المفتولة ، ومناكبه العريضة ، بل هم أجنحته الخافقة ونعمته الدافقة ، لا ولكنهم روحه الملهمة ، وعزته الدائمة ، ومجده الرفيع ، وركنه المنيع ، وتاريخه الذى لا ينسى ولا يضيع ، هم حينئذ كل أولئك ، فهم للوطن حيثما كانوا العدة والعديد ، والباع المديد ، والغنى الذى لا ينقص ولكنه يزيد .

هؤلاء هم ولائدنا وولداننا فيما تريد الحياة الطيبة أن يكونوا ، فهل قمنا لهم فى ضعف الطفولة واستسلامها بما يمنع النبات أن تقتله آفاته وهو لا يزال بتلا لا يقوى على حر ولا برد ، ولا يصبر على عطش ولا جوع ، ولا يثبت للصدمة الأولى ترميه بها حماقة الجهل وخطل الرأى وغواية المدجلين ؟

طفل القرية كيف تلده أمه ؟ وكيف ترعاه ؟ ثم كيف بعد ذلك يعيش إذا أفلته مخلب الموت وأطلقه نابه .

ليست العلة كلها علة الفقر ، فقد يخلو بيت الفقير من اللقمة اليابسة ولا يخلو من جرة الماء الرائق ، وقد يجد الحطب على طريق القرية ولا يجد الخلقان الناخلة فى صندوق المتاع ، وقد يتاح له أن يأوى من داره الى ركن بعيد عن مضجع البقرة ومربط الحمار ولا يتاح له السرير المرفوع فى الدار الزاهرة ، فهو يستطيع مع اليسر أو مع التعذر أن يلتمس لزوجته الماخض ولوليده المستهل حاجتهما من النظافة والدفء والوقاية فتتهيأ له أسبابها ، ولكنه يحتاج قبل ذلك الى أن يلتمس لنفسه حسن الفهم وسلامة التدبير .

وليست عافية الوالدة غداة ولادتها فى أن تطعم الفليظ المضجر من كل لحماء شحماء وتسقى الثقيل المبهظ من لواذع الأشربة وكثيفاتها ، كلا ولا سلامتها وسلامة الطفل الذى جاء الى هذه الدنيا ولا ذنب له فى أن تباشرهما قابلة طويلة الأظفار منقذرة اليدين مسحوبة الذيل على أوساخ الأرض فيما تغدو وما تروح ، فما فى ذلك غير التهلكة أو التعرض لها ، وإنه لمن آيات لطف الله أن يكتب النجاة والحياة لأمثال هؤلاء الوالدات وأطفالهن بعد أن يلفحهن من أسباب التلف ما تتعاصى معه الحياة إلا بعناية من الله .

والعجب لفلاحنا يتدارك بقرته بمسهل تشربه بعد أن تلد له العجل العزيز فيسقيها الحلبة مبثوثة فى الماء الدافئ لينظف جوفها من عفن الحمل وبقاياه ، ويفوته أن امرأته تحتاج الى مثل ذلك بعد أن تلد طفله الأعز ، ثم العجب أن يتعهد بقرته بخفائف الغذاء حتى تقوى على هضم غلائظه ويغيب عنه أن ينهى نسوة الدار عن تعهد امرأته منذ اللحظة الأولى بالفطيرة ملاكة فى الزبد والدجاجة يقطر منها الدهن والعجوة مقلوة فى السمن والأشربة المسكوبة فى الأحشاء كما يسكب ماء النار على الحديد البارد .

أية أم هذه التى تحفها أعجوبة القدر فتخطفها من يد الموت وهى فى كل لحظة من أسبوعها الأول بين ماضغيه ؟ وأى طفل هذا الذى لا يعجل له الموت فيحمله بين اصبعيه وقد كان شأنه أن يعيش مع من كانت مثل أمه ضائعا فهو بعدها أضيع ؟

ولكن هنالك أمهات وأطفالا تكتب لهم النجاة بأعاجيب القدر ، ثم لا يزالون من حكم القدر فى ميزان الحق ، فالله تعالى خلق الأشياء وجعل لكل شى سببه ، وقدر الحظوظ وجعل لكل حظ طريقه ، وبعد ذلك خلق فى الناس الاختيار ورزقهم قوة التمييز ، غير أن غرابة الادراك تأتى هنا أبين مما كانت فيما سبق ، فهذا الفلاح يعلم أن التراب يؤذى زرعه وهو نبات ناجم من الأرض ، ويفهم أن تجاوز الحد المحتمل فى اطلاق الماء لسقى هذا النبات معجلة لهلاكه ، ويعرف أن الذباب والدود يفتكان بقطنه وقمحه وفاكهته وجميع ما يرجو مما تنبت الأرض وما تثمر ، ولا يخدعه خادع فى أن الحر والبرد إذا قسوا على مزرعته حين لا يكون زرعها قويا على احتمالها تركاها حصيدا وتركاه يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، هذا

الفلاح يعيش من كل ذلك على بصيرة وفهم ، وله مثل هـذا الفهم وهذه البصيرة فيما يضر ماشيته وماينفعها ، فهو يطرد الذباب عن عينيها وجروحها حتى لاتمرض أو تزيد مرضا ، وينقى علفها من أخلاطه الغريبة حتى لا تعتل بالغـذاء ولا تسقم بالداء ، ويتمى لو سقاها أبدا ماء الآبار لا ماء النيل لأن ماء الآبار فيما ترى عيناه أصفى وأنقى ، هكذا يفهم الفلاح مايضر الزرع وماينفعه ، وماتصح به الماشية وماتسقم ، أو هو قد انتهى على الأقل بعد نصح الناصحين وإرشاد المرشدين إلى هذا الفهم ، وهو مع ذلك فى غفلة عن قرب القياس ويسره ، فماذا الفرق بين هذه الآفات يرى فيها تلف النبات والحيوان ولا يرى فيها تلف الإنسان ؟ وأى إنسان هو ؟ طفله وطفلته ، وفتاه وفتاته ، بل لعله لايردها عن نفسه بالتماس الوقاية منها فتصرعه قبل أن يلتفت .

طفل القرية فى مهده وحبوه ، وفى شبوبه عن طوقه واعتماده على رجليه ، يبقى هكذا فرخ الوليمة الدائمة لآفات البيئة ، دهن عينيه الرمض وكحلهما التراب ، وشمم أنفه الروث وثنايا فمه الذباب ، وغذاؤه مص الحشفة ومسرحه مربط الدواب ، وقد ترفق به أمه فتطعمه الزعاف فى قطعة اللحم وتلقمه الداء فى القطيرة الملتهبة ولاتزال توليه من هذا وأمثاله بما تحسبه جديرا أن يضخم به جسمه ويغلظ دماغه ، وهى إذا أخذته لترضعه أعطته من وسخ ثديها مع كل رشفة داء وبيلا وهما ثقيلا .

إن من الشر الأكبر أن تلفح هذه النار أطفال الريف فى العهد الذى يكونون فيه أرق من أعواد الريحان ، على أنه ليس أعظم الشرين ، فقد تكفلت شمس الريف وهواؤه باصلاح ماتفسده البيئة المطبوعة على هذه الغفلات ، والشمس والهواء أكرم من أن يكلا نبات الله إلى الجهل وسوء الحساب ، أما الشر الأعظم ففى تطبيب المرضى الذين لايستطيعون الشكوى ولا ينطقون أين مدب الوجع من أبدانهم ، فقد تكون علة الطفل نزلة معوية فلا يعرف الدلالة عليها بغير الصراخ ، وقد يكون مرضه دفتريا تدب فى حلقه فلا يطيق التعبير عنها بغير الأنفاس المبهورة والخفقات المنقطعة ، وقد يكون وجعه فى رأسه أو آذانه أو أى جارحة سواهما من جوارحه ، ولكنه مع ذلك فى رأى الأهل والجيران مريض فقط ، وأول أنواع المرض أن يكون محسودا فدواؤه الرقية والبخور ، فان طالت العلة فالدواء عند فلانة المتطببة ، وفلانة المتطببة تعطى علاجها كما يقع فى خاطرها ، فهى تارة تضرب اصبعيها فى فمه لترفع حلقه الساقط ، وهى تارة تشير أن يلقموه بيضة مشوية قبل أن يبرد حميها ، وهى تارة تذيب العجوة فى الماء وتسقيه ملء الإناء ، وفى كل ذلك قسوة الجهل فى قلوب الرحماء ، وقتل الضعيف البرىء بيد من يفدونه بنور الأعين وحبات القلوب .

ان تصاريف القدر هى التى تجرى الآجال بين أطفال الريف ، والله القادر على أن يطلق الأسباب فتتخلف عن مسبباتها هو الذى ينقذ أولئك المتخلفين من ركب الموت ،

وهو الذى ان شاء رزقهم العافية فأصبحوا بين الأحياء أحياء ، وان شاء ألزمهم السقم فعاشوا لا فى الأحياء ولا فى الأموات .

فى هذه الصورة أو فيما لا يختلف عنها من الصور تعانى الطفولة الدارجة فى بلدان الريف المصرى وقراه حظها المقسوم من الشقاء والبؤس ومما يعقبانه من موت أقسى منه الحياة أو حياة لا رجاء فيها ولا خير .

وفى المدن على مثال هذه الصورة ألوان من تعس الطفولة و بأسائها لا تختلف نهايتها عن نهاية الطفولة فى الريف ، فأى أحد امتدت خطاه الى مسابح الانسانية المضطجعة من ضيق الفقر، وظلمة القبر، وعفن المأوى، وجهل المنفعة، وضيعة الفهم، وغلبة الخرافات بين نواجذ الأمراض — تقذفها إلى شدق الموت، لا يروعه أن تتسق الطفولة هنا أيضا وتأس ولا يدهشه أن تأكلها الآفات وتمضغها المهلكات من نحو ما رأيت من وصف الحالة فى الريف ، ثم لا فرق إلا أن للريف المطهرين المنقذين من شمس وهواء ، وللأحياء المائجة بالفقراء والمساكين فى المدن مضايق تصد الشمس عنها وتمنع الهواء أن يمر بها

لا أدرى كم يحسب فى جملة الأمة الأطفال الذاهبون فى الريف والمدن ضحايا هذه النقائص الاجتماعية على التحقيق ، ومهما يكن الحساب فهم كثرة لا يعتدل بضياعها بناء الوطن ، فإذا أنجاهم قدر السماء من الموت أصبحوا من الهزال والضعف أنحاس رجال وأسداس نساء ، وعاشوا بين الأمة رجالا ونساء على أطراف الحياة ، كما كانوا يعيشون أطفالا على أطرافها .

إن من أوجب حق الوطن على المستبصرين والفهماء من أبنائه أن يتداركوا الطفولة الصانية البريئة بما تصح به وتسلم ، فإن المناعة المدخرة منذ الصغر جديرة أن تكون فى الكبر حائطا تتكسر عليه زواحف الأمراض ، وإنه لمن المسلم أن الشباب المستوفز فى البيئات الدنيا والوسطى فقد الحماية الواقية من هذه المناعة فلم تزل الأمراض المتوطنة تغالبه حتى غلبته ، وهو الآن مرعى خصيب للبلهارسيا والانكلستوما والبلاجرا وللرمد الصديدى والحبيبى ولما يتبعها من أمراض الكلى والكبد والطحال ، والقلب مع ذلك يجاهد وحده بين الضلوع حتى يدركه الوهن والانهزام .

و بعد : فإن للأمة فى وزارة الشؤون الاجتماعية رجاء مضمون التحقق ، وثقة مكفولة الصدق ، فقد كان العلاج المأمول يجىء مبدد المصادر فتجىء آثاره مبددة الفائدة ، والآن والشمل مجتمع وعين الطبيب ساهرة لا يبقى إلا أن تتكاتف على الخير جماعة هذه الوزارة ، ويد الله مع الجماعة .

محمد المهياوى